ندوة: الشباب السوري والمشاركة السياسية

المشاركون: رزان زيتونة، سعاد جروس، علي سفر
أدار الندوة: ياسين الحاج صالح

ندوة

من المألوف أن يقال إنّ مجتمعاتنا شابّة، لكن الأكثر شيوعًا هو الحديث عن شيخوخة المجتمع السياسي في بلادنا، وشيخوخة الناطقين السياسيين والثقافيين باسمه! في هذه الندوة شابّتان وشابٌّ، من مرحلة الشباب المتأخّر، يتحدّثون عن الشباب والسياسة. كان في خطّتنا الأولية عقدُ ندوة ثانية لشبان في بدايات المرحلة الجامعية، لكنّ حجمَ الملفّ واعتبارات أخرى دفعتْنا إلى العدول عن ذلك. ونأمل أن تُطْلق هذه الندوة نقاشًا شبابيّاً حول المحاور المقترحة أو محاور أخرى لم نُغَطِّها.

عُزوف الشباب السّوري: السلطة والأحزاب

ياسين: هناك انطباعٌ منتشرٌ في سورية عن عزوف الشباب عن العمل العامّ والسياسة. هل هذا الانطباع صحيح بوجه عامّ؟

سعاد: إنّه انطباع صحيح إلى حدّ بعيد. هناك عوامل كثيرة هَمّشت المجتمعَ ككلّ وأَقْصَتْه عن السياسة. بالنسبة إلى جيل الشباب، تحديدًا، فقد تكون مرارةُ تجربة الثمانينات جَعَلت الابتعادَ عن السياسة رأسَ الحكمة لدى الآباء، ودفعتْهم إلى تحذير أبنائهم من مخاطرِ السياسة. والأبناء، بدورهم، قَبِلُوا ذلك لغيابِ تجربةٍ تُثْبت العكسَ.

ياسين: وما هي التجربة المرّة التي أبعدتِ الشبابَ عن العمل السياسي؟

سعاد: أتحدث عن نفسي؛ فأنا أنتمي إلى فئة لم تكن طرفًا في ما شهده عقدُ الثمانينات، وكان بعيدًا عن أيّ موقف. ومع ذلك فأنا لا أنسى اليومَ الذي شَهِدَ تفجيرَ شارع الأزبكية في دمشق.[١] حينها، كانت أختي طالبةً في كليّة الفنون، القريبة من مكان التفجير، فتلقَّتْ أسرتي ـ التي تعيش في حمص ـ الخبرَ بهلعٍ وقلق، وكان صعبًا معرفةُ مصير أختي بسبب قَطْع الاتصال مع العاصمة. أَذْكر وجهَ أمي الباكي، وهي جالسةٌ خلف باب الدار، وعينُها على الشارع بانتظار أيِّ قادم من دمشق. أما والدي فكان ينقّل مؤشّرَ الراديو بعيدًا عن مسامعنا، لالتقاط إشارةِ إذاعةٍ محظورةٍ بغيةَ معرفةِ ما يجري. كان يومًا عصيبًا، وأنا أستعيده من الذاكرة الآن مع جملةٍ مشاهدَ أخرى لا تقلّ عنه إثارةً للذّعر: كمشهد شبابٍ قَضَوْا في تفجيرات أخرى؛ وصورةِ أمِّ أحدِ المعتقلين تَحْضر دائمًا في كلّ الجنازات، أَعَرَفَتِ الميتَ أمْ لا، لأنّ تلك هي فرصتُها الوحيدةُ للبكاءِ بصوت مسموع بدلاً من التزام الصمت التامّ المفروض عليها! إنّها مَشاهدُ لا تنسى، الفجيعةُ فيها عاقبةٌ حتميةٌ للسياسة.

علي: أريد أن أعلّق على رأي سعاد. فأنا أرى أنّ ظرف الثمانينات كان نتيجةً لا سببًا. ففي الثمانينات أصبحنا نَحْصد النتائجَ؛ وأنا أريد أن أُحيل الأمر على استقالة المجتمع بشكل عامّ، وجيلِ الشباب بشكل خاصّ، من العمل العامّ. ذلك أنّ هذه الاستقالة تعود أسبابُها، بشكل أساسي، إلى عام ١٩٥٨، وهو تاريخُ قيام الوحدة بين سوريا ومصر، وإلى فترة الانفصال (١٩٦١ ـ ١٩٦٣)، وإلى ثورة ٨ آذار لاحقًا، وقدوم قوةٍ سياسيةٍ أرادتْ أن تَحْكم المجتمعَ عبر أدواتٍ رأتْها مناسبةً لتطبيق مشروعها السياسي.

سعاد (مقاطِعةً): لم أقل إنّ عزوف الشباب بدأ في الثمانينات. بل إنّ جيلي، الذي تفتّحتْ طفولتُه على تلك المآسي، لا بدَّ أن يخاف من السياسة.

ياسين: ما هي برأيكَ، يا علي، مظاهرُ عزوف الشباب عن العمل العامّ؟

علي: المظاهر تتحدد عبر التالي: أغلبُ قيادات هذه الأحزاب السياسية هَرِمةٌ لا شابّةٌ. وإذا سألْتَهم لماذا قياداتُكم هرمةٌ، يجيبونَكَ بأنّ جيل الشباب لا يندفع إلى العمل السياسي. لكنّني

١ ـ الإشارة هنا إلى عمليّة إرهابية وقعتْ في منطقة الأزبكية بدمشق في ١٩٨١/١٠/٩ . لم تُعلن السلطاتُ عددَ ضحاياها لكنّه يقدَّر بالعشرات على الأقلّ من المدنيين. نَسَبَتْها السلطاتُ إلى الإخوان المسلمين، ويَنْفي هؤلاء بشدّةٍ مسؤوليتَهم عنها.

أقول إنّ الانكفاء عن العمل العامّ ينطبق على المجتمع بشكل شامل. ولعلّ السبب يعود، تحديدًا، إلى وجود «قانون الطوارئ» الذي يَمْنع أيَّ نشاط فرديّ من دون الرجوع إلى المسموح الأمني، الأمرُ الذي ولَّدَ نفورًا عند كلّ الناس (لا الشباب وحدهم) من العمل الأهلي أو المجتمعي. ونحن لم نَرَ أيَّ مجموعة شبابية تقوم بعمل عامّ دون أن تكون مرتبطةً بإحدى مؤسسات السلطة. وقد قوبِلَ القائمون بعملهم المستقلّ بردودِ أفعالٍ محبِطة من قِبل تلك المؤسسات.

ياسين: أيّ عمل؟

علي: أعني قضيةَ شباب منطقة «داريّا» قرب دمشق الذين قَرّروا تنظيفَ شوارع بلدتهم، ودعوةَ الناس إلى مكافحة الفساد وإلى الامتناع عن تلقي الرشوة وتدخين السجائر الأميركية.(١) وبغضّ النظر عن انتماءات هؤلاء الشباب، فإنّ العمل الذي قاموا به هو عمل مجتمعيّ سلمي، ولكنْ تمّ التعاملُ معهم بعقلية أمنية. وقد يُمْكن أن نتفهَّم الردَّ الذي وُوجِهَ به شبابُ «داريّا،» إذ لا يُمْكن الانسحابُ من العقليّة التي حَكَمت المجتمعَ أربعين عامًا. صحيحٌ أنّ هناك بالفعل محاولةً للانسحاب من العقلية الأمنية، ولكنّ هذا الانسحاب سطحيٌّ وغيرُ مجدٍ ما دامت القوانينُ القامعةُ موجودةً. فلقد حاول «اتحادُ شبيبة الثورة،» مثلاً، الانفتاحَ على النشاط الأهلي، فقام منذ زمن طويل بإعادة الاعتبار إلى نشاط الكشّافة. ولكنّ هذا الانفتاح لم يأتِ بنتيجة، بسبب ارتهان المؤسسة أصلاً لقوانينَ قسرية تَحْكم المجتمعَ، كحالة الطوارئ أو قانونِ الأحكام العرفية. وعليه، فإنّ الشباب مازال، عمومًا، يخاف من صيغة المبادرة أو العمل الأهليّ لوجود مثل هذه القوانين.

رزان: أولاً أعتبر أنّ العزوفَ قسريّ، لا ذاتيٌّ من قِبل الشباب. وهنا أختلفُ مع علي في أنّ الأحزاب لا تجد شبابًا ينضمّون إليها، أو في أنّ الشباب يَنْفرون «من القيام بالعمل الأهلي.» فالحال أنّ الشباب المهتمين بالشأن العامّ لا يجدون الأُطرَ المناسبةَ، أي الأحزاب أو المنظّمات التي يُمْكن أن يَعْملوا من خلالها. بل إنّ الأطر الموجودة حاليّاً تشكّل عاملَ **طردٍ** لهؤلاء الشباب.

وبسبب الوضع الأمني الضاغط، وعدم وجود الحماية القانونية لأية تنظيمات أهلية أو مبادرات شبابية، فإنّ الشباب لا يتمكّنون من إيجاد أُطُرهم الخاصة. هذا بالإضافة إلى انعدام الخبرة لأنّ الشباب سيبدأون من نقطة الصفر، بسبب غياب تجارب سابقة لهم.

ياسين: قد تكون مشكلةُ عزوف الشباب عن العمل السياسي، إذن، نتيجةَ مفهومٍ معيّنٍ للعمل السياسي لم يعدْ صالحًا؟

سعاد: العالم العربي عمومًا لم يَشْهدْ تجربةً سياسيةً ناجحةً قابلةً للاستمرار. والذي حالَ دون ذلك دخولُ العسكرِ إلى الميدان السياسي. واستمرّ ذلك عدةَ عقود، إلى أنْ انتقل العملُ السياسي من يد العسكر إلى يد الأمن. وقد أسَّسَ لهذا أولُ انقلاب عسكري عامَ ١٩٤٩ في سورية، قام به حسني الزعيم، وأَجهض جنينَ الدولة الحديثة. وللأسف، ربما لو كُتِب لذلك الجنينِ الحياةُ، لكانت سوريا ذاتَ نظام ديموقراطي.

ياسين: في الخمسينات والستينات كانت عندنا مشاركةٌ شبابيةٌ مهمة. وحتى السبعينات...

سعاد: أعتقد أنّه منذ الخمسينات بدأ العسكرُ بتهميش العمل السياسي والسياسيين. لقد تمّ طردُ المنطق والعقل السياسي، ليحلَّ مكانَه منطقُ القوة. وبالتالي باتت أيّةُ تجربةٍ سياسيةٍ محكومةً بالفشل. حتى الحزبُ الذي وصل إلى السلطة سَلَكَ طريقَ الجيش، وربما حَقَّق نتائجَ ناجحةً بمعايير ذلك الوقت. لكنّ الحقيقة هي أنّه أقصى نفسَه عن العمل السياسي، وتَرَك

١ ـ جاء في بيان لمنظمة العفو الدولية في ٢٠٠٥/١١/٨ أنّ هؤلاء ناشطون اجتماعيون اعتُقلوا في أيار (مايو) ٢٠٠٣، وحُكم على محمد شحادة (خرّيج لغة إنكليزية) ومعتزّ مراد (مهندس) بالسجن لمدة ثلاث سنوات، وعلى هيثم الحموي (طبيب) ويحيى الشربجي (محاسب) بالسجن لمدة ٤ سنوات، بتهمة محاولة إنشاء تنظيم ديني، والمشاركة في أنشطة اجتماعية غير مرخّص بها، وحضور فصول دينية وفكرية غير مرخّص بها أيضًا.

سفر: قانون الطوارئ وَلَّدَ نفوراً عند كل الناس لا الشباب وحدهم، والمرجعية العليا في الأحزاب تَئِدُ أيَّ نشاطٍ لا يخدم السلطة أو استمرارية الحزب

تجربتَه نهبًا للركود والفساد، حين اعتَبَرَ الوصولَ إلى السلطة مُنْجَزَه الأولَ والأخيرَ، وأنّه لا تُمْكن حمايةُ ذلك إلاّ عبر منع النشاط السياسي العامّ. فكان أن استقالَ المجتمعُ.

ياسين (مقاطعًا): استقال أمْ أُقيل؟

سعاد: سيّان، استقال أو دُفِعَ للاستقالة. المهمُّ النتيجة! أما بالنسبة إلى العمل الأهلي، فأنا لا أعتقد أنّ الشباب عازفون عنه. فالحقّ أنّه لم يحدث انقطاعٌ في العمل الأهلي، وإنما تراجعٌ كبيرٌ، أو خسوفٌ.

ياسين: ماذا تعنين بالعمل الأهلي؟

سعاد: هناك عملٌ أهلي اجتماعي لا علاقةَ له بالنشاط السياسي. وحسب معرفتي، فقد استمرّ نشاطُ المؤسسات الدينية في هذا المجال، وبالأخصّ الكنائس.

ياسين: قد يقتصر هذا على الوسط المسيحي وعلى النشاط الخيري؟

سعاد: ليست كلُّ الأنشطة خيريةً. فهناك نشاطاتٌ ذاتُ بعدٍ اجتماعي وثقافي وتربوي، وتُعبِّر عنها المخيّماتُ الصيفيةُ للأطفال والشباب. وأعتقد أنّ هناك مؤسساتٍ إسلاميةً تقوم بالشيء ذاته.

ياسين: هل يَصْلح هذا النشاطُ أرضيةً لعملٍ سياسي عامّ؟

سعاد: بالنسبة إلى الكنيسة لا يَصْلح نهائيّاً. فنشاطها محاولةٌ للحفاظ على الرعيّة، لا غير.

ياسين: قد يَخْدم هذا النشاطُ إبعادَ الشباب عن العمل السياسي، لا تقريبَهم منه؟

سعاد: بل هو وسيلةٌ لجذب الشباب إلى الدِّين، والحفاظ على المؤسسة الكنسيّة.

ياسين: لدينا منظماتٌ شبيبةٍ في سورية، مثل «اتحاد شبيبة الثورة» الذي يضمّ مبدئيّاً كلَّ طلاب المدارس السورية من الصفّ السابع حتى الثانوية العامة. ولدينا «الاتحادُ الوطنيُّ لطلبة سوريا.» إلى أيّ مدى يُمْكن اعتبارُ هذه المنظّمات أشكالاً للعمل السياسي للشباب، لا أشكالاً لنزع العمل السياسي من الوسط الشابّ؟

علي: هذه المنظّمات تنتمي إلى صيغةٍ سياسيةٍ لإدارة المجتمع مرتبطةٍ بالسلطة السياسية، وظلّت محكومةً برؤية هذه السلطة لكيفية التعامل مع الشباب. ولذلك فأنا لا أستطيع أن أراهِنَ على جيلٍ مبنيٍّ على رؤية أُحادية، أو رؤيةٍ تدير المجتمعَ بشكلٍ نمطيّ أو من خلال مجموعةِ شعارات. والموضوع لا يقتصر على «اتحاد شبيبة الثورة» أو «الاتحاد الوطني لطلبة سورية»؛ فالشيء نفسُه يَحْدث في المنظمات الموجودة عند أحزاب «الجبهة الوطنية التقدمية» التي تتعامل مع الشباب بالعقليّة ذاتها. فمقابلَ «اتحاد الشبيبة» الرسمي، هناك «اتحادُ الشباب الديموقراطي» عند الشيوعيين؛ والشيءُ المشترك بين المنظمتين يَكْمن في أنّهما بلا فعّالية ذاتية من غير الرجوع إلى المرجعية الحزبية العليا. وهذا في حدّ ذاتِه جزءٌ من فعل المُصادَرة لطاقات الشباب، التي يجب عدمُ تأطيرها. زدْ على ذلك أنّ المرجعية العليا في الحزب تَئِدُ أيّ فعّالية أو نشاطٍ لا يَخْدم السلطةَ أو استمراريةَ الحزب.

ياسين: هل كونُها منظّماتٍ مضادةً للحرية يعني أنّها ليست جاذبةً للشباب؟

علي: يمكنك أن تقول إنّ حريتها مؤطَّرة ومقوْنَنة، وبالتالي تتنافى مع أساس كلمة «الحرية.»

ياسين: هناك مفارقة: لدينا منظّمات شُغْلُها تسييسُ الشباب (وتسييسُ كلّ شيء). ومع هذا، فثمة شعورٌ عامّ بأنّ الشباب غيرُ مسيَّسين وبعيدون عن الحياة السياسية. ما رأيكم؟

رزان: ليْتَها تسيِّس الشباب! فلو فَعَلَتْ لقامت بمهمة إيجابية، لكنّ المشكلة أنّها تؤدلج وتقولِب الشبابَ ضمن إطارٍ معيّن، وتزيدُ عددَ «العبّاد» لآلهةٍ معيّنة. هذه هي مهمةُ تلك المنظّمات، لا السياسةُ ولا التسييسُ!

سعاد: كافّةُ الأحزاب السياسية التي عرفناها كانت تعتمد في نشر أفكارها على تحشيد الجماهير وتجنيدِها كمجاميع ذات وظيفةٍ محدَّدةٍ سلفًا. وهذا يتنافى مع الطبيعة البشرية، لأنّه يُلغي التمايزَ الفكري والعقلي بين الأفراد. ومن باب الإنصاف ينبغي القولُ إنّ منظّمة «شبيبة الثورة» أو «منظمة طلائع البعث» [جميع تلاميذ المدارس الابتدائية] ليستا سيئتيْن بالمطلق. ففي البداية أدّتا مهمتَّهما، ودَعَمَتا مواهبَ كثيرةً، ومَنَحتا فرصًا لظهور متفوقين ومبدعين من أطفالِ وشبابِ الريفِ النائي وأبناءِ الطبقات الفقيرة.

ياسين: لكنّنا نتحدث عن دورهما السياسي؟

سعاد: أنا أتحدث عن الناحية العلمية. هناك أشياء إيجابية، لكنّ نسبتَها راحت تقلّ حتى تكاد تختفي، ضمن جوٍّ عامٍّ فاسد. ذلك أنّ مشكلة هذه المنظمات هي جزءٌ من مشكلة الحزب، وهي جزءٌ من مشكلة مؤسسات الدولة التي ضرَبَها الفسادُ والمحسوبيات.

رزان: لكنّ هذه المنظمات تَنْتهك حقوقَ الطفل...

ياسين: هل لأنّ «الطلائع» و«الشبيبة» إجباريتان؟

سعاد (متدخّلةً): «الشبيبة» ليست إجباريةً، على الأقلّ من خلال تجربتي فيها.

رزان: كانت إجباريةً حين كنتُ طالبةً.

سعاد: كان هناك اعتقادٌ سائدٌ بأنّ الانتماء إلى الحزب يوفّر فرصًا للتوظيف، ويقي من شرّ المُخْبرين.

رزان: الطفل تحت ١٨ سنة لا يجوز تنسيبُه إلى أيّ منظمة. فهذا اعتداءٌ على حقّه في الاختيار حين يصير راشدًا. الانتساب الإجباري لهذه المنظمات خرقٌ فاضحٌ لحقوق الطفل.

ياسين: مفهوم، لكنّي مهتمّ بنوعية تأثير هذا الخرق على اهتمام الشباب بالعمل السياسي. هل ينفّر التنسيبُ الإجباريُّ إلى منظَّمتي «الطلائع» و«الشبيبة» الأولادَ من الاهتمام بالقضايا العامّة؟

رزان: أعتقد أنّه لا ربطَ مباشرًا بين الأمرين. فالشباب الواعي يدرك أنّ هذه المنظّمات لا تمتّ بصلةٍ إلى العمل السياسي الحقيقي، وأنّ دورَها مجردُ عمليةِ تأطير.

ياسين: ونحن نتحدث عن تأثير الدولة والمنظّمات، أسألكم: إلى أيّ مدًى يتدخل الخوفُ لإبعاد الشباب عن العمل السياسي؟ تعلمون أنّ كلمة «سياسة» تثير فورًا تداعياتِ الخوف والرهبة.

علي: هذه حالة طارئة في حياة المجتمع السوري، إذ سبق لهذا المجتمع أن عاش في الماضي حالةً سياسية. لكنْ كلّما ارتبط العملُ السياسيُّ بالقمع تنامت ثقافةُ الخوف. وحالة الخوف من العمل السياسي تولّدتْ منذ بداية حكم السلطات التي استأثرتْ بقيادة المجتمع ولم تَسْمح للقوى الأخرى بأنْ تمارسَ فعّاليّاتها السياسية. وهذا ما جعل الناسَ ينكفئون عن السياسة؛ حتّى إنّ مَنْ عملوا فيها سابقًا صاروا يعيدون حساباتهم: فإذا كان هذا العملُ سيجعلهم عرضةً لدفع الضريبة، فإنّ من الأفضل تَرْكَه.

ياسين: أيّ ضريبة؟

علي: ضريبة القمع والسجون، مثلما حدث أيامَ الوحدة، إذ لم يكن مسموحًا العملُ السياسيُّ إلاّ عبر حزب واحد هو حزبُ السلطة، بل نَفَّذتْ سلطاتُ الوحدة «مآثرَ دمويّةً» بحقّ الأحزاب الأخرى ـ من الشيوعيين إلى القوميين السوريين مرورًا بالإخوان المسلمين. وحالة الانفراج التي تمت بعد الوحدة لم تكن كافيةً لأن يستعيد المجتمعُ السوريُّ حراكَه السياسي. وأمّا السلطة التي أتت بعد الوحدة فقد قامت بالشيء ذاته، فعشنا من سنة ١٩٦٣ حتى سنة ١٩٧٠ حالةً من القمع للقوى السياسية الأخرى. وكلُّ هذا التراكم أدّى إلى أن يَرْتبط العملُ السياسيُّ عندنا بالخوف.

ياسين: هل في جوابك نفسِه شيءٌ من الخوف؟ فقد تكلّمتَ عن الوحدة وعن فترة ١٩٦٣ـ١٩٧٠، ولكنّك أَغْفلتَ ما بعدهما!

علي: ذلك ممكنٌ طبعًا! لكنّ علينا أن ننتبه إلى أنّ فترةَ ما بعد ١٩٧٠، ورغم حالة القمع، لم تلغِ العملَ السياسيَّ برمّته. فالقوى

زيتونة: على الشباب اليوم ألاّ يعوّلوا على الأحزاب، بل أن يخلقوا أُطُرَهم الذاتية للعمل العام

المقموعة كانت تلجأ إلى العمل في صفوف الشباب، ولكنْ تحت الأرض. ونحن نَذْكر أنّ الأعمال الإرهابية كان وقودَها الشبابُ الذين حُظر على القوى السياسية الرسمية، أحزابِ «الجبهة الوطنية التقدمية،» أن تَعْمل في أوساطهم. ورأيي الشخصي أنّ هذا مفصلٌ هامٌّ في تاريخ علاقة الشباب بالسياسة في سورية، إذ إنّ العديد من القوى السياسية رَفَضَتْ أن تَحْتكر قوى سياسةٌ واحدةٌ قطاعَ الشباب وانسحبتْ من «الجبهة» المذكورة بسبب هذا الأمر.

سعاد: احتُكِرَ العملُ السياسي في الأوساط الشبابية بهدف التعبئة، لا بهدف المشاركة السياسية.

علي: أنا أتحدث عن قوى سياسية مرخَّص لها بالعمل. هذه القوى لم تكن تفكِّر بالتعبئة قدرَ تفكيرها بضرورة تفعيل العمل السياسي ضمن الشباب. وحين نَرْجع إلى الوثائق السياسية نرى أنّ الراحل الدكتور جمال الأتاسي، الذي أسهم إسهامًا كبيرًا في إنشاء «الجبهة،» كان يَعْرف أن حرمانَ القوى السياسية من العمل ضمن الجيل الشباب يعني تركَ الشباب عرضةً لأن يكونوا وقودًا للتيار الإسلامي المتطرف الذي كان يتنامى آنذاك. وهكذا نرى كيف أنّ أغلب مَنْ ساهم في حركة «الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين» كانوا من فئة الشباب. لقد كان ذلك نتيجةً طبيعيةً لقرار الاحتكار الرسمي للعمل السياسي ضمن قطاع الشباب.

ياسين: إلى أيّ مدًى تعتبرون الأحزابَ السياسيةَ المعارضةَ مسؤولةً عن إبعاد المجتمع ككل عن السياسة، وليس فقط جيل الشاب؟

رزان: لا أَقْدر أن أطلبَ من الأحزاب أكثرَ من طاقتها. فلو نظرتَ إلى تاريخها، وإلى القمع الذي تعرّضتْ له، وإلى انقطاعها هي نفسِها عن السياسة بعد فترة القمع ودخولِها مرحلةَ سبات قسريّ، ثم انطلاقِها من النقطة التي توقَّفتْ عندها... إذا نظرتَ إلى كلّ ذلك، فإنّك لا تستطيع أن تَطْلب منها الكثير. أنا أتفهَّم تمامًا أنّها غيرُ قادرة على أن تَجْذب الشبابَ، بل ثمة أطرافٌ منها تشكّل عاملَ طردٍ للشباب. وأعتقد أنّ الشباب في المرحلة الحالية يجب ألاّ يعوِّلوا على هذه الأحزاب، بل أن يَخْلقوا أُطُرَهم الذاتيةَ للعمل العامّ.

سعاد: لا يُمْكن تحميلُ المعارضة الموجودة الآن على الساحة المسؤوليةَ، إذ لم تَظْهر مؤثِّراتُ حراكها بعدُ على جيل الشباب، مع مراعاة عدم وجود مناخ سياسي لذلك. إلاّ أنّ ثمة ملاحظةً شخصيةً تتعلق بالخوف من نزعة ثأرية تنطوي عليه بعضُ مقالاتٍ وبياناتٍ لأشخاصٍ معارضين.

ياسين: هل تعنين أنّه لو كان الخطابُ أقلَّ «ثأريةً» لكان أكثرَ جذبًا للشباب؟

سعاد: بالتأكيد. هناك مَنْ يقول إنّنا دفعنا ثمنًا غاليًا في الماضي، وهو كافٍ، ولسنا على استعداد لأن ندفعه ثانيةً من أجل تصفية حساباتٍ لم نكن طرفًا فيها.

رزان: هنا أخالفك الرأيَ يا سعاد. فالحاضر استمرارٌ للماضي لأنّ الماضي وملفّاته لم تنغلق، والجراح ما زالت تَنْزف، سواء قَصَدْنا قضيةَ المفقودين أو قضيةَ المعتقلين... إلخ. ثم إنّني لا أرى أيَّ مطلب «ثأري»؛ على العكس، كلُّ الجهات تنادي بطيّ صفحة الماضي والمصالحة الوطنية.

علي: كلُّ القوى السياسية السورية تتحدث الآن بنَفَسٍ غيرِ ثأريّ. أما بعض الأفراد، فأعتقد أنّهم حالاتٌ فردية.

سعاد: هناك أحزاب وأطراف سياسية ما تزال تنوء بأحمال الماضي، في حين أنّ الشباب أبناءُ المستقبل.

الشباب والدين

ياسين: ننتقل الآن إلى محور ثانٍ: الشباب والدين. ما هو مفهوم السياسة الذي يقترحه الدينُ على الشباب؟ هل يَجْذبهم إلى الميدان الوطني العامّ، أمْ يبعدهم عنه؟

علي: الأديان والطوائف في سورية لا تَطْرح العملَ الجماعي إلاّ من خلال العلاقة مع السلطة. والعمل السياسي، بوصفه فعاليةً

قد تؤدّي لأن يتعارَضَ الفردُ مع السلطة، مرفوضٌ على المستوى الرسمي لرجال الدين. هذا على مستوى الظاهر والعلن. أما تحت الأرض، فقد دعا الإسلامُ السياسيُّ إلى نموذج يؤسلم المجتمعَ ويعيده إلى عهد الصحابة. وقد تعارَضَ مع السلطة، ومع أغلب القوى السياسية الأخرى. وفي الظروف الحالية، أظنّ أنّ الأديان عنصرٌ طاردٌ للسياسة.

رزان: أنا أخالف علي تمامًا. الإسلام حالياً يكاد يكون هو الجاذبَ الوحيدَ للشباب من أجل العمل في المجال السياسي. إنّه يستوعبهم حالياً أكثرَ من جميع التيارات الأخرى من ناصريين وشيوعيين...

ياسين: إلى أيّ مدًى تَقْدر هذه السياسةُ على توحيد الشباب السوري؟ وإلى أيّ مدًى هي سياسةٌ غيرُ طائفية؟

رزان: هي سياسةٌ طائفيةٌ بامتياز، هذا أولاً. ثانيًا، لمّا كان غيرَ مسموح حالياً لأحزاب إسلامية معتدلة بأن تَنْشطَ وتستقطبَ الشباب، فإنّ التيار المتطرّف هو الذي قد يستقطبهم. ونحن مجتمعٌ أغلبيتُه سنّيّة، وهناك صحوةٌ إسلاميةٌ وموجةُ تديُّنٍ خلال السنوات القليلة الماضية، وقد تكون مناسبةً لاستقطاب الشباب.

ياسين: تريدين أن تقولي إنّ هناك نوعًا من تسييس الشباب يقرِّبهم من العنف والإرهاب؟

رزان: طبعًا. فحين تَقْمع السلطةُ التيّاراتِ العلنيةَ، ينفتح المجالُ أمام التنظيمات السرية كي تستقطب شبابًا. وهذه التيارات تكون دائمًا متمسكةً بالتعصب، بعيدةً عن الحداثة، لا تعني الديموقراطيةُ والحريةُ لها شيئًا على الإطلاق. ولا أودّ أن يُفْهم من كلامي أنّ الشباب السوري منخرطٌ بأغلبيته في تيارات أصولية أو ما شابَه، بل أودّ أن أحذِّر من أن تكون التياراتُ الأصوليةُ هي الأنجحَ في استقطاب الشباب، بسبب غياب الأطر المناسبة لعمل هؤلاء، وانعدامِ فرص الانخراط في النشاط السلمي الديموقراطي نتيجةً للأوضاع الأمنية الضاغطة.

ياسين: سعاد، إلى أيّ مدًى هناك اهتمامٌ بالشأن الوطني العامّ في أوساط الشباب المسيحي السوري؟

سعاد: الاهتمام بالشباب يَهْدف إلى حماية الطائفة من التلاشي والذوبان في النسيج الاجتماعي. والكنائس ـ ولله الحمدُ ـ تعطي ما لقيصر لقيصر وما للّه لله! والشأنُ الوطنيُّ العامُّ سقفُه طاعةُ أولياء الأمر والنهي، وفي ختامِ قدّاس الأحد يتضرّع الكاهنُ لحماية هؤلاء الأولياء.

ياسين: المجتمع السوري متعددُ الأديان والإثنيات والمذاهب. تُرى، هل يؤثِّر هذا التنوعُ على مفهوم الشباب للعمل السياسي؟ هل هو عاملٌ جاذبٌ للاهتمام بالشؤون السياسية السورية العامّة، أم هو عاملٌ مضعفٌ ومنفِّر؟

علي: التعدد الطائفي في سورية لم يكن أبدًا معارضًا للسياسة؛ فالأحزاب السياسية التي نشأتْ في سورية كانت مبنيةً على التعدد في أغلبها، والحزبُ الوحيدُ الذي نشأ بشكل دينيّ هو الإخوان المسلمون. ورغم ذلك، يبيِّن تاريخُ الإخوان المسلمين ما قبل فترة الثمانينات أنّ علاقتهم كانت جيدةً مع الطوائف الأخرى؛ بل إنّهم في لحظةٍ تاريخية ما تحالفوا مع الشيوعيين. هذا التعدُّد كان عاملاً صحيّاً في زمن سابق. لكنْ مع انكفاء صيغة العمل السياسي العلني السِّلمي، صارت الطوائفُ حصونًا يلجأ إليها الشبابُ للدفاع عن أنفسهم، ولحماية شخصيّتهم.

ياسين: الشخصية المذهبية والطائفية؟

علي: نعم، فهي نوع من الهوية.

ياسين: هل نستنتج إذنْ أنّ الشباب السوري مسيَّس، لكنْ بنوع من السياسة تحت الوطنية، أيْ بنوع من السياسة الفئوية؟

علي: العصبية الطائفية أدنى من العصبية الوطنية التي تَجْمع الجميعَ تحت لوائها، وتؤدّي إلى إنكفاء المجتمع واستقالته من مهمة الحفاظ على وحدته، لأنّه لا يوجد قانونٌ يحمي الناسَ حين يقرّرون العملَ في الشأن العامّ.

سعاد: سوريا لم تَعْرف الطائفيةَ سابقًا على هذا النحو. فالطائفية بدأتْ تَظْهر بقوة كأحد تداعيات احتلال العراق وتقسيمِه على أساسٍ طائفيّ، إذ جرى تهشيمُ مفهوم «الوطنية.»

جروس: مرارة تجربة الثمانينات جعلت الابتعادَ عن السياسة رأسَ الحكمة لدى الآباء، والأبناءُ قبلوا ذلك لغيابِ تجربةٍ تُثْبت العكس

ياسين: مَن المسؤولُ عن ذلك؟

سعاد: ليس المهمّ مَن المسؤول الآن. المهم أنّنا أمام نتيجة يَلْعب في تذكيتها غيابُ القانون، والفسادُ. ففي ظلّ مناخ كهذا، ومع تدهور الوضع السياسي، يُضطرُّ الفردُ إلى حماية نفسه بالفئةِ التي ينتمي إليها: العائلة، العشيرة، الطائفة... إلخ.

الشباب والأسرة

ياسين: ننتقل إلى محور آخر، هو الشباب والأسرة. هل الأسرة السورية معاديةٌ للسياسة، أم إيجابيةٌ تجاهها؟ أيُّ مفهومٍ للسياسة تعطيه الأسرةُ السوريةُ لأبنائها؟

رزان: سأحكي عن المرحلة الحالية لأنّه ليست لديّ فكرةٌ واضحةٌ عن الوضع من قبل. الأسرة السورية هي السلطةُ القمعيةُ الثانيةُ بعد السلطة السياسية! هناك سلبية كبيرة ناتجةٌ عن عقود الخوف والقمع التي تعرَّض لها المجتمع، وجيلنا [دون الثلاثين من العمر] لم يشهدْها لكنّها انتقلتْ إلينا من خلال أُسَرنا: الأب والأم والخال والعمّ، إذ تكاد لا توجد أُسرةٌ ليس فيها معتَقَلٌ أو مفقودٌ إلخ...، فَنَقَل إلينا أفرادُها إرثَ خوفهم مكثَّفًا، وبشكل يَشْمل كلَّ أشكال الإبداع في الحياة لا السياسة وحدها. وبذلك راحوا يحدِّدون لنا خطوطًا حمرًا، تمامًا كما تحدِّد السلطةُ خطوطَها الحمرَ للشعب.

ياسين: خطوطٌ حمرٌ للأُسرة السورية؟!

رزان: تمامًا. إذ ضِمْنَ الأُسرةِ مطلوبٌ منكَ فقط دراستُك وعملُك وأن تُنجبَ أولادًا. هذا ما تقرِّره الأُسرةُ السوريةُ. وما عدا ذلك، فإنّ كلَّ ما ينطوي على الإبداعِ وابتكارِ الهوية الذاتية منبوذٌ.

ياسين: الأسرةُ السورية معاديةٌ للسياسة ومحافظةٌ واستبداديةٌ؛ هذا ما تقوله رزان. ما رأيكم؟

علي: أنا أعتقد أنّ هناك تفاوتات. فلدى الأسرة في دمشق شكلُها للتعبير عن العمل السياسي تاريخيّاً، ولدى الأسرة في حلب شكلٌ آخر. وفي المقابل فإنّ لدى الأسرة في الريف شكلَها في التعبير عن السياسة: فهي كانت وما تزال تُرسل ابنَها إلى الجيش، وتَعتبر ذلك جزءًا من تمثيلها السياسي وجزءًا من الحماية.

ياسين: الهدف هو الحماية من «السياسة» أكثر ممّا هو البحث عن تمثيل؟

علي: أنا لا أرى الأسرةَ السوريةَ بلا تضاريس. لكنْ إذا أردتَ أن أناقش الوضعَ السياسي في البلد وتأثيرَه على هذا النشاط الأُسري، فإنّني أقول إنّ الأسرَ الريفية، أو الأسرَ ذاتَ المنشإِ الديني، تتلاقى في خطٍّ واحدٍ يفيد بأنّ السياسة التي ترشّحها الأسرةُ للشباب يجب ألاّ تتعارَضَ مع السلطة الحاكمة.

ياسين: هل نستطيع القولُ إنّ الأسرة السورية «ماشية الحيط الحيط، وتقول يا ربي السّتْرة»؟

سعاد: بالعكس! الأسرة السورية لا تكتفي بتشجيع ابنها على العمل السياسي الآمن والالتحاق بالسلطة فحسب، وإنما تشجّعه على العمل المدرِّ للمال والجاه والنفوذ أيضًا. والعكس صحيح في ما يخصُّ العملَ مع المعارضة، إذ تَعتبره الأسرةُ السوريةُ ضربًا من العبث المؤذي.

كذلك أتّفق مع رزان على مسألة تقييد الأُسرة للحريات، ولاسيّما حرية الإبداع. وهذا التقييد أقسى على المرأة منه على الرجل، في مجتمع يَفْرض شرطَ «السّمعة الحسنة» للمنضوين تحت جناحه، والذي قد يستثني المبدعين لما لهم من تصرُّفاتٍ خارجةٍ عن المألوف. وهؤلاء لا ينالون الاحترامَ الاجتماعي ما لم يحقّقوا منجَزًا يَمْنحهم حصانةً تَرْفعهم إلى ما فوق مستوى «الشبهات.»

ياسين: الأسرة السورية انتهازية، إذنْ؟

سعاد: أفضِّل القولَ إنّها «انتفاعية» براغماتية.

علي: العديد من الأُسر السورية، وضِمْنَ فهمِها للعمل السياسي، ترجِّح كفَّة الولاء التقليدي على كفّة حرية الاختيار. فهناك عائلة شيوعية، أو عائلة تنتمي تاريخيّاً إلى القوميين السوريين، أو عائلة

تنتمي تاريخيّاً إلى الإخوان المسلمين، أو عائلة بعثية، أو عائلة ناصرية، إلخ. هذا نمط متوفر كثيرًا في سورية..

ياسين: أترى أنّ للأسرة السورية نظامَ حزبٍ واحدٍ مصغّرًا؟

علي: نعم. شيء كهذا!

سعاد: إنّها مسألة «برستيج». فقد يكون هناك نائبٌ في البرلمان، لا علاقة له بشيء سوى «السَّلْبطة،» ومع ذلك يَرْفع له المجتمعُ القبَّعَة!

ياسين: فإنْ سُجِنَ؟

سعاد: يوصَفُ بـ «الأرعن» ويُقال إنّ «مخّه ناشف» أو عنيد، «حامل السُّلم بالعرض،» يَجْلب لنفسه ولأهله المتاعب. أقول ذلك مع الاعتذار الشديد للسجناء.

ياسين: هل هناك مفهومٌ للاهتمام بالسياسة وبالشأن العامّ عند البنات مختلفٌ عن الشباب؟ كيف تقارنون بين العبء الذي تتحمّله البناتُ عندما يشتغلن بالشأن العامّ، وذاك الذي يُمْكن أن يتحمَّلَه الشبّانُ الذكورُ؟

رزان: كل الظروف التي يتعرّض لها الشابُّ تكون مضاعَفَةً عند البنت: فهي غالبًا محاصَرَةٌ في أيّ نشاط اجتماعي تقوم به، فكيف إذا كان نشاطًا سياسيّاً قد تترتّب عليه مخاطرُ وتضحياتٌ؟!

علي: هناك تفاوتاتٌ هنا أيضًا. ليست المسألةُ صَبَّةَ باطون [إسمنت مسلَّح]. فإذا قررتْ بنتٌ من البنات أن تَعْمل تحت لواء الحزب الحاكم، أو «منظمة شبيبة الثورة،» أو «الاتحاد الوطني لطلبة سوريا،» فهل سيكون الضغطُ عليها مضاعَفًا؟ لا أعتقد ذلك! رأيي أنّ المسألة لها علاقةٌ بالتوجّه السياسي الذي يختاره الشابُّ أو الفتاةُ.

ياسين: المقارنة المناسبة هي بين فتاةٍ قرَّرت العملَ في الحزب الحاكم، وبين أخيها في الحزب نفسه. هل تختلف الضغوطُ أو الأعباءُ التي يواجهانها؟

علي: لا أرى فرقًا.

سعاد: عندما تخوض المرأةُ العملَ السياسيَّ إلى جانب الرجل، فإنّها تَدْفع الثمنَ مضاعَفًا من قِبل الأسرة والمجتمع، فلا ترحَمُها الشائعاتُ والنمائمُ التي تَطْعن في شرفها. حتى مَنْ يبخِّر لها من المقرَّبين يشكِّك في أخلاقها، ولو ضمنيّاً!

علي: ألكونها امرأةً، أمْ لكونها تتمرأى [تَسْتعرض أو تَسْتخدم أنوثتَها] من خلال السلطة؟

سعاد: طبعًا لكونها امرأةً. ذلك لأنّ الرجل الذي يَسْتعرض ذكورتَه وفحولتَه لا ينال القسطَ ذاتَه من الطعن والتجريح!

رزان: المجتمع ليس كما نتصوّر. المجتمع محافظ إلى درجة كبيرة، وأقسى بكثيرٍ ممّا يوحي. البنت محاصَرَة بسلاح اسمُه «الشرف» و«السمعة.» بمجرد خروجها مع شابّ مثلاً، ضمن علاقة العمل الذي تقوم به، يمكن أن يشكّل ذلك سلاحًا ضدَّها، أو اتهامًا لها؛ هذا من جهة. ومن جهة ثانية، يتحدّث علي عن دخول البنت الحزبَ الحاكمَ أو «الشبيبة».. إلخ. أنا لا أعتبر هذا نشاطًا سياسيّاً، أو نشاطًا عامّاً. النشاط السياسي هو أن تكون مثلاً في حزب معارض، أو في منظمة مدنية: الهلال الأحمر، الصليب الأحمر.. إلخ. أما الانضواء تحت إطار السلطة أو أحد تنظيماتها لمنفعةٍ شخصيةٍ، فهذا لا يُمْكن تسميتُه نشاطًا سياسيّاً أو عملاً عامّاً.

علي: هناك نموذج في المجتمع السوري، وأعني الفتيات اللواتي يعملن في إطار «القبيسيات.»[1] فهؤلاء يَقُمن بعملٍ عامّ، لا يتعارض أبدًا مع السلطة الأسرية، ولا مع السلطة المجتمعية التي تَحْكم. لكنْ ما الفرق بينهنّ وبين من يَعْملن في تنظيمات السلطة؟ فالأخيرات يشتغلن مع السلطة؛ وأما القبيسيات فيشتغلن ضمن قناةٍ لا تتعارض مع السلطة، وبالتالي تخفّ عليهنّ الضغوط.

١ ـ منظمة دينية (إسلامية) نسوية دمشقية، غير رسمية لكنْ غير محظورة. اسمُها مشتقٌّ من اسم رئيسته: منيرة القبيسي.

الحاج صالح: نسبة البطالة في سورية ٢٤٪ من قوّة العمل، ومعظم البطالة من نصيب الشباب

سعاد: هذا يتعلّق بتقديس المجتمع للدين. هناك أشخاص علمانيون، تحجّبتْ بناتُهم أو زوجاتُهم رغمًا عنهم، واضطرُّوا إلى التنازل لرغباتهنّ كي لا يَرْذلهم المجتمعُ. أما العمل السياسي فغيرُ مقدّس، إنْ لم يكن سيِّئَ السمعة أيضًا. لذا عندما يَقْبل الأهلُ بعمل ابنتهم في السياسة يُعتبر ذلك تنازلاً يتمّ وفقَ شروط تراعي الإجابةَ، أولاً، عن سؤالِ ما إذا كان المقابلُ الذي ستجنيه المرأةُ يستحقّ ذلك التنازلَ. وللأسف فإنّ المكاسب تُختزل دومًا بالمال والنفوذ. أتّفق مع رزان أنّ مجتمعنا قاسٍ كثيرًا على المرأة.

علي: المجتمع ليس كما تقولان يا جماعة!

سعاد: عندما يُعتقل الشابُّ فثمة مَنْ يعتبره بطلاً، وثمة مَنْ يقول إنّه مغفّل أو أضاع عمره عبثًا. لكنّ عندما تُعتقل المرأةُ يذهب تفكيرُ الناس نحو نوع **الانتهاكات** التي تعرّضتْ لها، ولو ضمنيّاً. والنتائج السلبية لا تعود عليها فقط، بل تَنْطبق على أسرتها لتَدْفع ثمنًا اجتماعيّاً مكلفًا يَدْخل في خانة «سوء التربية.»

الشباب والعمل

ياسين: محورنا الآن هو الشباب والعمل. في رأيكم، ما تأثيرُ فرصِ العملِ والدخلِ والمعيشةِ والزواجِ وبناءِ الأسرة على اهتمامِ الشبابِ بالعمل السياسي؟

رزان: لها أكبر الأثر، لأنّ أحد أهم أسباب ابتعاد الشباب عن الشأن العامّ هو البحث عن فرصةِ عملٍ مناسبةٍ وتأمينُ المستقبل ـ وهذا يأخذ وقتًا طويلاً. وحتى الشباب المهتمون بالعمل السياسي يَصْرفون الكثيرَ من الوقت لأجل تأمين لقمة العيش، على حساب نشاطهم وفاعليّتهم.

ياسين: يقال إنّ نسبة البطالة في سوريا ٢٤٪ من قوة العمل (الرقم منسوب إلى عبد الله الدردري، نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية)، ومعظمُ البطالة من نصيب الجيل الشابّ. هل يشدّ هذا الشرطُ الشبابَ إلى العمل السياسي، أمْ يَدْفعهم إلى الانكفاء عنه؟

علي: الأمر يتعلق بمستوى تطور وعي الشباب. فثمة شريحةٌ بَنَتْ حياتَها على إمكانية أن تحظى بالسلطة، وثمة شريحة ثانية تعاني الأمّيّةَ ولا تمتلك أيةَ مهنة. هؤلاء شيء، وأولئك شيء آخر. الشريحة المتعلمة تعاني تدهورَ الوظائف الاجتماعية للدولة، وترهُّلَ نظام الإنتاج، الأمرُ الذي يَهْدر إمكانياتِهم التي يعوّلون عليها من أجل تحقيق المكانة المطلوبة. بين هؤلاء أصواتٌ شابةٌ تطالب بالتغيير. لكنّ شريحة الشباب التي لم تتعلّم بل لجأتْ إلى مهن في القطاع غير المنظّم بقيتْ أسيرةً لمرجعيةٍ دينيةٍ أو أُسريةٍ لا ترحّب بفكرة العمل السياسي من أجل تحسين الوضع المعيشي.

ياسين: هل تروْن فرصةً لاتساع اهتمام الشباب بالعمل السياسي اليوم؟

سعاد: هناك مشكلة كبيرة في سورية تتمثّل في وجود جزء كبير من الشباب خارج أيّ برنامج إصلاحي مستقبلي، وهم من الأمّيّين الذين لا يَمْلكون أيةَ كفاءاتٍ تؤهِّلهم للانخراط في سوق العمل مستقبلاً، فيما لو توفّرتْ فرصُ عمل. هذا الجزء من الشباب يعيش في المناطق النائية الفقيرة والمناطق الحدودية التي تعتمد على التهريب لتحصيل العيش. كما يوجد جزء آخر من الشباب يحتاجون إلى إعادة تأهيل كي يتيسّر انخراطُهم في برنامج الإصلاح إذا تمّ، وهم من خرّيجي الجامعات والمدارس الذين حَصَلوا على شهاداتٍ ورقيةٍ تؤهلهم للعمل في مؤسسات الدولة في وضعها المتردّي. وهذه الشرائح العريضة يَصْعب عليها خوضُ غمار العمل السياسي في المستقبل المنظور.

أما إذا صَدَرَ قانونُ أحزابٍ، واستقامت الحياةُ السياسية، وأصبح الفردُ شريكًا فيها ـ وهو غيرُ متوقَّع قبل عشر سنوات على الأقل إذا كنّا متفائلين ـ فربما نستطيع عندها الحديثَ عن خوض الشباب للعمل السياسي. لكنّ الأولوية، حاليّاً، هي لتحسين المعيشة.

ياسين: في تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٣ إحصائياتٌ ونسبٌ مفزعة. فـ ٥١٪ من شريحة الشباب في ٦

دول عربية، ممن تتراوح أعمارُهم بين ١٧ و٢١ سنة، يفكرون في الهجرة. والنسبة تبلغ ٤٥٪ ضمن الشريحة العمرية بين ١٤ و١٧ عامًا. ما هي أهم دوافع هجرة الشباب، وما تأثيرها في العمل العام؟

رزان: الفئة الغالبة التي تفكّر في الهجرة هي التي تبحث عن وضع اقتصادي أفضل. أما الفئة الثانية فهي التي تبحث عن إمكانية لتُثْبت ذاتَها ووجودَها، ولديها طاقةٌ وإمكاناتٌ لم تستوعبْها بلادُها، ولذلك تَبْحث عن بلد آخر تحقِّق ذاتها فيه.

ياسين: بعض الجيل الشابّ يتعامل مع بلده كفندق!

رزان: أيُّ مكان يحسُّه الشابُّ ضيِّقًا على إمكانياته، فسيتعامل معه كمحطّة!

ياسين: لماذا لا يَطْرح الشبابُ على أنفسهم مهمةَ تغيير هذا الواقع بدلاً من الهروب منه، مرةً إلى الدين ومرةً إلى الخارج ومرةً بالانكفاء إلى الأسرة والقرابة والطائفة؟ أليست السياسةُ هي الحلّ؟

رزان: أعتقد أنّ الظروف التي تَخْلق هذه العطالةَ عند الشباب مازالت موجودةً بنسبة ٩٠ ٪، وهي الظروف الاقتصادية والأمنية والسياسية. وبالتالي فإنّ الإحساس بإمكانية التغيير ما زالت ضئيلة.

سعاد: الدافع الرئيسي لهجرة الشباب الذكور اقتصادي غالبًا، فيما يتقدّم عليه لدى الشابّاتِ عاملُ طلب الاستقلال عن مؤسسة الأسرة ـ فالحقّ أنّ مجتمعنا لا يُقرّ باستقلالية الفرد، ولا يعترف بحقّ ممارسة حرياته الشخصية. ولعلّ الانفتاح المذهل الذي نعيشه اليومَ يَدفع الشابَّ إلى البحث عن وسائل لممارسة حرياته الشخصية، حتى ولو بالخفاء. وقد يتمظهر ذلك في تفشّي ظاهرة الانحلال الاجتماعي، تحت السطح، في تواطؤٍ مجتمعيٍّ فاضح، بما يَخْلق حالةً من الازدواجية على صعيد المجتمع وعلى صعيد الفرد، وضمن حالةٍ مَرَضيّة تلتبس فيها المفاهيمُ والقيم. كلُّ ذلك يشكل بيئةً نابذةً لمن يَحْلم بأن يتصالح مع نفسه ومع محيطه، ومن الطبيعي أن يفكّر بالهجرة بحثًا عن مجتمع سليم وبيئة صحية يمكّنانه من تحقيق طموحاته.

علي: التاجرُ الأكبرُ في سورية هو الدولة، والصانع الأكبر هو الدولة، والعقول المتعلّمة التي كانت تَعْمل في جهاز الدولة هاجرتْ لأنّها لم تَقْدر أن تُصلح هذا الجهاز.

سعاد: لا شكّ في أنّ اختلالَ مفهوم المُواطنة هو أهمُّ عاملٍ في الهجرة. لقد تراجَع هذا المفهومُ عن السابق، ربما لأنّنا في زمن الاستقلالات كنّا في مرحلة صناعة وطن، وكنّا في حاجةٍ إلى بلورة هذا المفهوم. لكنْ منذ دخلنا زمنَ تدمير الأوطان وانتهاكِ كرامة المواطن، اختلّ هذا المفهوم.

التربية... والقُدْوة

ياسين: كيف يربّي الشبابُ بعضهم بعضًا في رأيكم؟ ما هي التربية السياسية التي يلقّنونها لبعضهم؟

علي: بنظري ليس هناك شباب يعلّمون السياسة!

ياسين: أكثرُنا تعلّم الاهتمامَ بالسياسة على أيدي شباب!

علي: أنت تعرف أنّ لدينا فجوةً ما بين جيل كان يتلمّس السياسةَ من جيلٍ سبقه، وبين جيلٍ أتى بعد ١٥ أو ١٦ سنة. وهذا الجيل الأخير غاب عنه النموذج.

ياسين: المثلُ الأعلى؟

علي: موقف هذا الجيل من العمل السياسي يتبدّى في غياب المثل الأعلى. فالنموذج المتاح أمامه هو نموذجُ انتهازيٍّ، يأخذ موقعَه بقوة الولاء لا بقوة الفعل السياسي والكفاءة. هذا الجيل لا يَعْرف من العمل السياسي إلاّ هذا النموذج، وهذه مشكلة خطيرة. إنّ العبء الواقع على القوى السياسية كبير إذ يجب عليها أن تفكّر كيف تعيد انتماءها إلى مجتمعٍ أغلبيتُه شابةٌ. فنحن لدينا ٧ أو ٨ ملايين من جيل الشباب أعمارُهم أقلّ من ٢٥ سنة. القوى السياسية الموجودة حاليّاً لا تفكّر بهذا الجيل أبدًا ولا تفكّر بمشاكله.

زيتونة: الطفل تحت ١٨ لا يجوز تنسيبُه إلى أيْ منظمة
سفر: نحن جيل بلا قدوات
جروس: حتى حزب البعث أقصى نفسه عن السياسة

ياسين: أهو جيل بلا قُدوات؟

علي: نعم، جيل بلا قُدوات، دون قوًى تعمل معه ومن أجله. هذا الجيل سوف يبقى عرضةً لعواملَ ومؤثّراتٍ خطيرة.

ياسين: ربما تكون لدى البعض من الجيل فكرةٌ سلبيةٌ عن العمل السياسي. قد يُقْنعون بعضَهم: «شو بدّك بالسياسة ووجع الراس؟»

رزان: هناك شيء من هذا القبيل، لكنْ ليس في أوساط الشباب المهتمة أصلاً بالسياسة، حيث هناك اتفاقٌ على الخطوط العريضة وإرادةٌ لعملِ شيءٍ ما. بل أصبح ثمة نفورٌ من الرمز في الفئة التي لديها احتكاكٌ بالتنظيمات الموجودة. الشباب ليسوا بحاجة إلى قدوة، بل إلى شخصيات لديها كاريزما معينةٌ تساعد على تبلورِ تصوُّرِ الشباب للعمل العامّ.

ياسين: ولكنّ هناك شبابًا يضعون صورةَ غيفارا مثلاً.

رزان: أعتقد أنّ هذا موجود عند شباب أحزاب «الجبهة،» لأنّ هؤلاء الشباب موجودون في الأجواء التي يوجد فيها شبابُ «شبيبة الثورة» البعثية.

علي: هذا الجيل يتعاطى مع تشي غيفارا من خلال تأثّره بصورته العالمية كأيقونة، لا من خلال وعيه بظاهرته وبظروفها وانطباقها على شرطه الذاتي أو الموضوعي!

ياسين: ولكنْ هل يحدّ تماسُّ هذا الجيل مع ما هو خارج سوريّة من اهتمام الشباب بالشأن الوطني؟ وهل يتلاقى معه؟

علي: إذا نَظَرْنا إلى حجم المؤثِّرات، كالفكر الفوضوي وتمظهراته في الغرب، نرى أنّ هناك شريحةً في سورية تأخذ هذه التمظهرات وتمارسها في البلد. فحين أكون أنا شاباً عمري ٢٢ سنة وأعشق الأغاني الغربية، وحين أرى تظاهرةً ضدّ قتل الحيوان، أحاول أن أقوم بالشيء ذاته لأنّ شبابًا غربياً يقوم بذلك. ولكنْ حين تدعو قوى سياسية أو مجتمعية سورية لفعل الأمر ذاته يغيب الشبابُ عن التظاهرة!

سعاد: لكلّ جيلٍ قدوتُه، وليس من الضروري أن تكون القدوةُ سياسيةً. غياب القدوة الفكرية أو السياسية ذو علاقة بهاجس الشباب الذي يتمحور حول تحقيق الاستقلال الذاتي والتمتع بحق الحرية الشخصية. فالمشكلة الاجتماعية تطغى على نظيرتها السياسية. وبالتالي تصبح قدوةُ الشباب في التحرر هي «شباب ستار أكاديمي.»

ياسين: الحرية الشخصية منفصلة عن الحرية السياسية؟

سعاد: الوعي الشبابي الراهن لا يَرْبط بينهما. ثمة مشكلة ثقافية: شبابنا لا يقرأ ولا يَعْرف شيئًا عن الثقافة ولا السياسة، وبالأخصّ الشباب الصغار دون سنّ دخول الجامعة. إنّهم يفكرون في الحرية بشكل غريزيّ، إذ تعني لهم أولاً التخلُّصَ من سلطة الأسرة، ومن التبعية الاقتصادية لها؛ وتعني لهم ثانيًا التمردَ على المجتمع بارتداءِ ما يحلو لهم من أزياء وصرعات. وفي معمعانِ هذه المعركة، تبدو السياسةُ مستبعَدة.

ياسين: الشباب السوري لا يقرأ؟ هل هذا صحيح؟

علي: لا يجب التعاملُ مع هذا الشباب كقطيع. الشباب السوري ليس قطيعًا!

سعاد: عندما ترى في الشارع عشراتِ النُّسخ من هيفا وهبي [المطربة]، فماذا تسمّي هذا؟ أليس قطيعًا؟

ياسين: قطيع هيفاوات؟!

علي: هذا موجود في كلّ دول العالم!

هل من جديد؟

ياسين: المحور الأخير: هل من جديد في رأيكم في علاقة الشباب بالعمل العامّ والسياسة؟

علي: خلال السنوات الخمس الماضية تحوَّل ميزانُ حركة الشباب: من شبابٍ منعزلٍ عن كلِّ ما يحدث، إلى شبابٍ مطّلعٍ

على ما يدور في العالم. أعتقد أنّ الشباب السوري لم يعشْ حالة الحرية، وهذا يجعل فاعليته أقلَّ من المجتمعات الأخرى. ولكنّي أعتقد أنّ الثورة الإعلامية، وثورة الانترنيت تحديدًا، ستجعله يدافع عن إمكانياته ليؤكّد أهليّته لأن يكون فاعلاً.

ياسين: لكنّ نسبة المشتركين بالإنترنيت ١٪ من السوريين!

علي: هذه هي النسبة الرسمية. مقاهي الإنترنيت فيها كثيرٌ من الشباب. حاليّاً نستطيع أن نتداول آلافَ المطبوعات خلال دقائق، وتعاطي المعلومات صار أسهل، وبآلياتٍ جدّ بسيطة.

رزان: الشباب حاليّاً بعيد عن السياسة، ولكنّ هذا لا يعني أنّه غير مهتمّ بها. الشباب السوري حاليّاً محظوظ جدّاً لأنّه وُجِد في عصر الإنترنت؛ إنّه أجمل اختراع في العالم. الشباب الذي يتابع ويهتمّ ويَطْبع ما يقرأ في الإنترنت ويَحْصل على المعلومة وينشرها: هؤلاء مشاريعُ سياسيين للمستقبل.

سعاد: أريد أن أميِّز هنا بين عدة شرائح شبابية. الأولى ما قبل سنّ الجامعة، وهذه ليست لأفرادها اهتماماتٌ سياسية، وخاصةً إذا كانوا من أبناء المناطق النائية، ولكنْ يُمْكن استثناءُ فئة قليلة منهم تنتمي عادةً إلى أُسَرٍ تهتمّ بالثقافة والسياسة. الشريحة الثانية هي الشباب الجامعي ومَنْ تتراوح أعمارُهم بين ٢٦ و٣٥ سنة، وأغلبُهم يتركّز في المدن الكبرى كدمشق وحلب، وهم يهتمُّون بالشأن العامّ، ويتفاعلون بشكل جيد جدّاً مع المتغيرات، ولهم تطلُّعات وأفكار وثقافة خاصةٌ بهم، على نحوٍ لا نتوقّعه.

ياسين: وهذا شيء جيد من أجل مستقبل سورية..

سعاد: التطور حتمي. قد يتطلّب الأمرُ مزيدًا من الوقت، لكنّه حاصلٌ لا محالة.

ياسين: هل أنتِ متفائلةٌ بالشباب السوري؟

سعاد: الانغماس في التفاصيل يجعلني أبالغ في التشاؤم. لكنْ، بالنظر إلى المشهد العامّ، أتفاءل بأنّ القادم أفضل.

علي: أنا متفائل! هناك تكلُّسٌ عند الشباب، وهذا له علاقة بتحكّم الدولة بمفاصل المجتمع بشكل أساسي. لكنْ، مع تحوّل المجتمع باتجاه الديموقراطية، سيكون الوضع أفضل. أنا متفائل جدّاً بهذا الجيل.

رزان: أنا متفائلة!

ياسين: كأنّ العامل الحاسم في تفاؤلكم هو التكنولوجيا؟

سعاد: أراهن على إعادة الاعتبار لتشغيل العقل.

ياسين: لن أختم هذه الندوة دون سؤال عن الوضع الحالي وما يكتنفه من توتُّرات وضغوط ومجهولات كبيرة. أيُّ تأثير للأوضاع الحالية في سوريا وحولها على اهتمام الشباب السوري بالسياسة والشأن العامّ؟

رزان: الشباب بانتظار شيء ما، ربما بانتظار الشيء الذي ما استطاعوا هم أنفسُهم أن يعملوه!

علي: بالإضافة إلى ما قالته رزان، يبدو أنّ سنة ٢٠٠٥ كانت حافلةً بعوامل مؤثِّرة كَسَرتْ مجموعةً من الخطوط الحمر عند الشباب، وعند كل فئات المجتمع.

سعاد: بل منذ صارت أميركا جارتَنا، تكسّرتْ خطوطٌ حمرٌ كثيرةٌ، و«فاتت بالحيط» أشياءُ أكثرُ.

علي سفر:
شاعر ومخرج تلفزيوني سوري.

سعاد جروس:
كاتبة صحفية سورية شابّة. مراسلة جريدة **الكفاح العربي** اللبنانية، ومديرة تحرير مجلة **شبابلك** الشهرية السورية المستقلّة.

رزان زيتونة:
محامية وناشطة حقوقية شابّة، وكاتبة من سوريا.

ياسين الحاج صالح:
كاتب سوري.